أقلمة المفاهيم التداولية لنظرية النظم (من القرن الثالث إلى القرن الخامس الهجري)
قص للمسارات البلاغية و الفلسفية و النحوية

الدكتور : محمد الأمين بحري
قسم الأدب العربي
كلية الآداب و اللغات
جامعة محمد خيضر –بسكرة (الجزائر)

ملخص:

سواءٌ لدى القدامى أو لدى المحدثين تبقى فكرة النظم عصية على الانحسار في مصطلح وحيد بعينه ما دامت تؤمن بعقيدة التحيين التي لا تعرف الحدود المكانية أو الزمانية .

Résume

Chez les anciens comme chez les contemporains l'idée d' Annadhme reste irréductible à un seul terme tant qu'elle prend le chemin de la pragmatique qui croie sans cesse à l'actualisation qui n'a plus de limites spatiales ou temporelles.

الإشكالية:

تهدف هذه المقاربة – من حيث هي بحث في الفكر اللغوي العربي و آليات تطور مفاهيمه و جهود تحيينها– إلى تدارس المفاهيم التداولية للخطاب اللساني التي اجتازت تلك المسافة الحاسمة من نظرية النظم إلى مختلف تمظهرات الشعرية و أنساقها، و هو لعمري عبور من الوسائل إلى الغايات، من بلاغة الخطاب إلى علم النص، من غاية الإبلاغ إلى مزية الإمتاع التي تتغنى بها الشعرية في أيامنا هذه.

و حري بنا أن نشير إلى كيفيات و أنماط عبور المفاهيم اللسانية من هذه الضفة إلى تلك، مستعرضين مختلف أشكالها و صيغها و صورها المستجدة حينما توسم في كل فترة بميسم التحيين و الترهين الذي يشهد على حدوث حياة الإنسان في مختلف صيغه التي يعبر بها عن أغراضه، و يسعى بها إلى غاياته، و يجسد بها إبداعه في فنون القول و الكتابة، و ذلك حينما تنبسط لغته في الأزمنة فتتكشف هويتها الحداثية بفعل آلية التعاقب التي تبرز اختلافها و تغيرها عن سابقتها و لاحقتها. بينما ينكشف عمقها المفاهيمي في ذلك الآن حينما تسلط عليها آلية التزامن أو الاستغراق في فترتها الزمنية المحددة التي شاءت لها أن تكون بتلك المواصفات المحددة دون غيرها.

فإذا كان التحيين– من حيث هو أقلمة للمفاهيم الخطابية مع كل فترة زمانية– هو الثابت في عملية تحديث المنظومة المصطلحية و المفاهيمية لأي خطاب لساني، و طرائق توارد ذلك التحيين هي المتغيرة بتغير حياة الناس في كل عصر، فإلى أي مدى يمكن أن تساعدنا هذه الصورة المركَّبة للتحيين بطوريها الثابت و المتحول في فهمنا لغائية استعمال تلك المفاهيم و المصطلحات اللسانية للخطاب و علل تكونها؟

و هل لصبغتها الاصطلاحية التي تثبت درجة تقدمها عن سابقتها، و كذا قيمتها المعرفية و التداولية في عصرها بعداً علمياً يثبت أصالة ما بذل فيها من جهود. و يؤسس لنهج بحثي مستقبلي قابل للاستئناف؟

1- أقلمة مفاهيم الخطاب اللساني من التداول إلى التحيين:

سعياً نحو تحقق فكرة "**المتكلم المستمع المثالي**" أُحيط الخطاب اللساني بهالة تنظيرية و تقعيدية و رؤى فلسفية مختلفة بغرض تأطير مساره، و توضيح مقاصده، و تدقيق خطابه و تهذيبه بلاغةً و فصاحةً و موافقة لسياقات تداوله الهادف، عبر مختلف مواقعه من العملية التواصلية التي تصنعه و تعيد صناعته دون انقطاع في الحقل اللساني.

لذلك اعتُبر" مفهوم التداولية مكوناً من مكونات اللغة إلى جانب المكون الدلالي و التركيبي(...) و عندما نقول إن ظاهرة ما خاضعة لـ(عوامل تداولية) فإننا نقصد ذلك المكون الذي يعالج وصف معنى الملفوظات في سياقها(...).

التداولية توصف كذلك لتصور اللغة و بشكل أعم للتبليغ/ الاتصال"[1].

و لما كان منتهى التداولية هو الإحاطة بملابسات وظيفتي التبليغ و الاتصال المنوطتين بمعاش البشر و " **تحقيق أغراضهم**" كما أسلف ابن جني منذ أمد بعيد، فإنها من أجل هذه الغاية الأولية قد توزعت عبر عديد التيارات المتقاطعة حول دقائق المفاهيم التداولية، و من بين هذه التيارات نستعرض :

السيميائيات (سوسور/ بيرس) – نظرية أفعال الكلام (أوستين/ سيرل) – استنباطات التفاعل الخطابي (غرايس)– لسانيات التلفظ (بنفينيست/ يالمسليف/ كوليولي) – لسانيات النص و مفاهيم الاتساق/ الانسجام (هاليداي/ شارودو /دوبوغراند).

بيد أن هذه التيارات التداولية الحديثة لا تمثل إلا الخلاصات و النتائج حينما نقرنها ببدايات الدرس اللساني العربي، حيث لا تكون تلك المفاهيم سوى حلقة أخيرة في سلسلة طويلة من جهود التحيين التي طالت مختلف المفاهيم التداولية للخطاب.

و إذا ركزنا على المفاهيم التي يتداولها الخطاب اللساني و تتقاطع فيها مختلف تياراته السالفة وجدناها تشترك في مقاربة تأسيسية، و تصب في بوتقة جامعة و هي: ما أُطلِق عليه: "مبدأ التعاون" في الخطاب اللساني من حيث:

"– **الكمية:**(غنى الخطاب بالأخبار بشكل يجعله مكتفياً بمكوناته دون زيادة أو فائض.

– **الكيفية:** توخي الصواب و البرهنة عليه

– **العلاقة:** هدفية الخطاب و مقصديته بعلل وجوده و غاياته

– **الصيغة:** بلوغ تلك المقاصد بأوجز الصيغ و أبلغها.[2]

و الملحوظ على مبدأ التعاون هذا سعيه الحثيث في كل خطوة من خطواته إلى تحقيق أقصى حد من الانسجام و هو ما أطلق عليه القدامى مصطلح "النظم" الذي سرعان ما يتحول إلى وسيلة حينما يتعدى الحدود التداولية من مجرد الإبلاغ إلى أفق الإمتاع أو بعبارة وجيزة حينما ينشد تلك الغاية الجمالية و هي "الشعرية" تعتبر قمة ذلك الهرم الذي بناه جاكوبسون في نظريته الوظيفية الشهيرة للتواصل.

و تجدر الإشارة إلى أن كلمة "الشعرية" في حد ذاتها ما هي إلا تحيين حداثي لمفهوم رجراج تداولته مختلف الاجتهادات و تجاذبته نظريات قديمة عدة حتى وصل إلى مستواه الحالي.

فما سر هذا التطور الرهيب الذي يصيب مختلف المفاهيم الخطابية حينما يسربلها التداول فيغير من شكلها و نظامها و هيأتها في كل عصر؟

هذا هو ما نطلق عليه التحيين أو الترهين l'actualisation الذي يتخذ مسارين متلازمين:

1- المسار الأفقي (التعاقبي diachronique). حينما يمتد في الزمن و يتخطى الحقب متخذاً لوناً و صبغة يناسبان سياق العصر و أحوال نخاطبيه في سيرورة تاريخية تطورية.

2-المسار العمودي (التزامني synchronique) حينما تشتغل الدراسة على كيفية صياغته و ملابسات ولادته في حقبته الخاصة دون غيرها.

فكلما طرقنا حقبة تاريخية إلا و برز فيها أحد أعلامها ممن أسهموا بنظرياتهم و رؤاهم الفلسفية في تطور مفهوم لغوي أو تيار لساني أو مبحث دراسي في اللغة و نحوها؛ و كلها جهود تداولية تعاقبت على هذه المفاهيم اللسانية للخطاب التي يتشدق المعاصرون بتسمياتها، و تحتفل الدراسات الحديثة بمصطلحاتها و طرائق البحث فيها.

لذلك فكل عصر يمثل حالة خاصة تمثل بمفاهيمها و مصطلحاتها حقلاً تزامنياً ينغمس بخصوصيته و ثقافته و مذهبه في قلب المفهوم اللساني الذي انبثق عنه و يعطي صورة مركزة على جهود من برز فيه من علماء،

و تصوره الخاص و جهده المتفرد في بلورة المفهوم و ترهينه بحسب ملابسات ذلك العصر.

و في الوقت ذاته تتخذ هذه المرحلة الخاصة إذا ما رددناها وراءً و أماماً ، بالنظر لما يسبقها و ما يلحقها مساراً ممتداً أفقياً في الزمن(تعاقبي الملمح) ؛ بحيث يمثل متغيراً عابراً، أو حلقة من حلقات تطور ذلك المفهوم الذي حفرنا

عميقاً (عمودياً) في حقبته و جهود صاحبت نهجه، و خصوصيته التاريخية.
و بذا يتعانق المساران في تعرضنا لكل حقبة دونما حاجة إلى فصلهما الواحد عن الآخر لأن ذلك من شأنه أن يفصل الجانب المعرفي للمفهوم عن ظروف ولادته في سياقه التاريخي. و هي مظاهر ارتأينا أن نأتي بها مجتمعة عبر المنحى التسلسلي لتاريخ الدراسات اللغوية العربية التي اهتمت أولاً بمسألة "**مبدأ التعاون**" بين مختلف طبقات الكلام و مستوياته الوظيفية من أجل غاية جمالية و إمتاعية للخطاب يمكن أن نسميها "**ما فوق تداولية**"[3].

2- مفهوم التحيين في ارتباط الحياة العلمية و الحياة اليومية:

إن أولى الملاحظات التي تقفز إلى ذهن الدارس للبحوث العلمية في مختلف علوم اللغة و آدابها هو ذلك الارتباط الوثيق بين تقاسيم البحث اللغوي الذي بين يديه و تفاصيل حياة صاحبه اليومية التي تجعل من عمله أو بحثه اللغوي أو الأدبي انعكاساً لمختلف أنشطة الإنسان في ذلك العصر، أو قل إنها تجعل منه فصلاً تأريخياً يصور جانباً أو جوانب من حياة الناس في ذلك العصر، و الأشياء المحيطة بهم، و أغراضهم، و أنشطتهم اليومية، و مشاكل حياتهم، و ألوان معاناتهم، و بهجتهم و طقوسهم ؛ حتى ليكاد مؤلف من المؤلفات كـ: "**البيان و التبيين**"، أو "**الخصائص**"، أو " **كتاب العين**"، يكون وثيقة صالحة للبحث الأنثروبولوجي، و يتضح لك هذا الرأي جلياً حينما تتفحص أيها القارئ العربي المحدث تلك اللغة و جمهرة الشواهد المتناثرة بين ثنايا تلك الكتب، فلا يمكنك أن تتصورها مبتورة عن حياة الناس هنالك، بل أكثر من ذلك قد تجرك كثرة الانكباب و طول الألفة مع تلك الكتب
و تعابيرها و شواهدها إلى الانفصال عن عصرك فتبدو أنت العربي – لكن المعاصر – غريب الأطوار عن يوميات عصرك و حياتك الطبيعية فتتباعد

الهوة بينك وبين أهلك و ناسك كلما زاد تأثرك بمؤلفات القدامى تلك و تأثرك بتعابيرهم و لغتهم و شواهدهم حتى و إن كانت موغلة في العلمية و التجرد." حتى لقد سار فينا سريان الأمثال أن يكون رجل اللغة العربية و نحوها و معجمها و مصادرها و تصاريفها، رجلاً غريباً عن مسرح الحياة اليومية لا تسيغ سمعه الآذان، إذا حرص على ضبط اللغة مقروءة أو مكتوبة"[4] و كلما زاد حرصه هذا على مصاقبة ألفاظ لغة القدامى و فصاحة معانيها و تخيرها زادت الهوة اتساعاً بينه و بين أناسه و أهله و العامة، و قد يرمى – إذا ما بالغ في إدخال تلك التعابير في صلب لغة معاملته اليومية– بالخبل أو الدروشة. فترفع عنه أقلام الناس و أوراقهم.

و إن دل هذا الموقف على شئ فإنما يدل على خصيصة تميز البحث العلمى لدى أسلافنا و هي خصيصة التحيين l'actualisation التي ترهن أي مكتوب بمنطوقه الآني الخاص و ظرفه المعيشي المحدد، و حقبته الزمنية و ملابساتها التاريخية و الحضارية و الثقافية، و الرقعة المكانية و ما حوته من ديكور الحياة و الحضارة، و جال في مسرحها من مظاهر الثقافة التي تترجمها العبارة و الإشارة التي تحملها تلك المتون عبر أساليبها و شواهدها المختارة.

أولاً– المسار البلاغي– جهود الجاحظ أبي عثمان عمر بن بحر. (القرن الثالث الهجري).

1– تحيين مفاهيم النظم:

أ– النظم معجزة قرآنية:

مثلما كان مرجعاً لعديد المصطلحات و المفاهيم البلاغية و النحوية و حتى العلمية، نجد الجاحظ أول من حاز قصب السبق في استعمال مصطلح النظم و ذلك في كتابيه الشهيرين **البيان و التبيين** و **الحيوان**، اللذين جاء فيهما بنية

الدفاع عن العرب و لغتهم التي جعلها سلاحاً إعجازياً يذود عنهم و عن دينهم الحنيف ، و يدفع عنهم كل تهمة أو شبهة في ذلك العصر الذي أوغلت فيه صدور العجم و الشعوبية على دين العرب و لغتهم.

و لم يجد الجاحظ بداً من استعراض آيات الإعجاز في هذه اللغة التي يتوجها كلام الله عز و جل في كتابه الذي أفحم البلغاء و أخرس المفوهين من خطباء العرب وشعرائهم.

و يشيد الجاحظ في أول مبارزة بكتاب الله و حديث رسوله عليه الصلاة و السلام بآيات الإعجاز التي أشرقت من هذين المنبعين البلاغيين المنقطعي النظير فيقول في رسالة حجج النبوة:" و لو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، على **نظم** القرآن وطبعه، و تأليفه و مخرجه لما قدر عليه، و لو استعان بجميع قحطان و معدِّ بن عدنان"[5].

و معروف أن رسائل الجاحظ أسبق عهداً – باعتبارها مجموعة من الكتب القصيرة المحكمة– من كتابي البيان و التبيين و الحيوان، و آيتنا على ذلك أن الجاحظ قد ذكر مسرداً لمجموع رسائله و خاصة رسالة "**حجج النبوة**" هذه في مقدمة كتاب الحيوان [6] و معروف أن الحيوان أسبق عهداً من البيان و التبيين[7].

و يذكر الجاحظ في معرض سرده لكتبه قبل كتاب الحيوان و البيان و التبيين أنه ألّف كتاباً كاملاً في "**نظم القرآن**"[8]. و هذه آية على أن الجاحظ لم يكن أول من سن لنا لفظة نظم فحسب بل إن له كتاباً كاملاً في النظم لم يبلغنا، و لو بلغنا لنالنا منه خير كثير، و لاستوفت نظرية النظم كثيراً من تفاصيلها قبل نضجها و اكتمالها على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني بعد قرنين من الزمان (القرن الخامس الهجري).

و لو تتبعنا لفظة نظم عند الجاحظ لوجدنا لها مواقع عدة في كتابه "البيان و التبيين" و إن كان يقصد بها نظم الشعر في كثير من المواطن [9].

ب- النظم - تآلف عضوي بين الإنسان و الكون

يتسع مفهوم النظم - في تعبيره عن قدرة الصانع على ترتيب خلقه- ليشمل نظام الكون بأسره، و يدلنا الجاحظ على سبيل بلوغ هذه الصورة بمجرد رؤيتنا لتناسق و انتظام خلق الإنسان، و ذلك وفق مقولة: "**العالم الصغير سليل العالم الكبير**" . و هذا مبدأ كوني عام يبدو أن الجاحظ استلهم منه عدة أفكار و مفاهيم على غرار فكرة النظم و لعل من أبرزها طريقته في التأليف التي تنحو من خلال الحديث الخاص إلى الإشارة إلى المعنى العام.

أما عن أصل هذا المبدأ فهو توجه من الخاص إلى العام أي أن يستدل على وحدة الكون الكبير انطلاقاً من تكوين سليله الإنسان الصغير،

و بمعنى آخر أن ما نشهده من انتظام و اتساق لعناصر الكون يجد برهانه إذا ما تبصرنا في خلق صنوه المصغر الإنسان الذي يحكي في تكوينه العضوي و البيولوجي مختلف تجليات الكون الرحب. حيث يشرح لنا الجاحظ هذا الإعجاز في تناسق الكونين المتماثلين بقوله في كتاب الحيوان في حديثه عن خلق الإنسان:" إنما سموه العالم الصغير سليل العالم الكبير لما وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير، و وجدنا له الحواس الخمس، و وجدوا فيه المحسوسات الخمس... و سموه العالم الصغير لأنهم و جدوه يصور كل شئ بيده، و يحاكي كل صوت بفمه، و قالوا : و لأن الأعضاء مقسومة على البروج الإثني عشر و النجوم السبعة، و فيه الصفراء، و هي نتاج النار

و فيه السوداء و هي من نتاج الأرض، و فيه الدم و هو من نتاج الهواء

و فيه البلغم[10] و هو من نتاج الماء، و على طبائعه الأربع وضعت الأوتاد

الأربع"[11].

و في كتاب آخر له ضمن رسائله و هو كتاب المعلمين يقول:"... و إنما قيل للإنسان العالم الصغير سليل العالم الكبير لأن في الإنسان جميع طبائع الحيوان أشكالاً من ختل الذئب، و روغان الثعلب، و وثوب الأسد، و حقد البعير، و هداية القطاة، و هذا كثير"[12]. لكن يبدو أن لهذا المبدأ غاية إنسانية أنبل و مقاصد أدق تكشف لنا عن فلسفة متكاملة لمفهوم التآلف العضوي بين مكونات الكيان الواحد.

ج- النظم - تآلف عضوي بين الإنسان و الإنسان:

نفهم من هذا المبدأ الكوني الذي صيغ به الإنسان و الكون معاً وفق نظام إلهي موحد و متناسق يستوعب فيه الإنسان على صغره عناصر و طبائع الكون على شساعته، أن المسألة تتعلق بالكيف لا بالكم، و بانسجام الصناعة و انتظام قوانين سيرها حتى ليكون الكل واحداً و الواحد كلاً و هو مدار الإعجاز الذي يصوره الجاحظ في مقام آخر يتحدث فيه عن وحدة النفس و الجسد قائلاً: "و إنما صارت أبقاك الله – أجزاء النفس و أعضاء الجسد مع كثرة عددها واختلاف أخلاطها و تباعد أماكنها نفساً واحدة و جسداً واحداً لاستواء الخواطر و لالتقائها على الإرادة، فأنت و صديقك الموافق و خليلك ذو الشكل المطابق، مستويان في المحابِّ، متفقان في الهوى، متشاكلان في الشهوة، و تعاونكما كتعاون جوارح أحدكما، و تسالمكما كتسالم المتفق من طبائعكما، فإذا بان منك صديقك فقد بان منك شطرك، و إذا اعتل خليلك فقد اعتل نصفك، بل النفوس المضمنة كالمعاني المضمنة، فذهاب بعضها هو ذهاب جميعها" و هنا نقع على ذلك التطابق بين مفهومي النظم؛ ذلك الخاص بتوافق السجايا الإنسانية في النفس و الجسد، و ذلك الخاص بانتظام المعاني

في الخطاب و الكلام. حيث قرن علة زوال النظام الإنساني و تداعي انسجامه بصورة اختلال نظم الخطاب التي من شأنها أن تُذهِب معناه.

غير أن للجاحظ هنا أيضاً مقاصد سامية و غايات خفيه يستدرجنا إليها لكي يصل إلى تكوين نظريته الفلسفية و الكونية في النظم التي سيختص بها لاحقاً العرب فيمتازون على سائر الأمم و بالقرآن الكريم فيبرهن على كونية خطابه و إظهار إعجازه.

د- النظم من تآلف البشر إلى استدعاء آلة البيان:

يحيط الجاحظ استدعاء الكون للإنسان و استدعاء الإنسان للإنسان و من أجل خلق ذلك الانسجام الذي يستدعي التواصل بين الناس و من هنا يتخذ من ضرورة التواصل بين أعضاء الجسد الواحد و انتظام حوارها مدخلاً منهجياً لطرق باب البيان في نظريته للنظم.

يقول الجاحظ في تأسيسه لهذه النظرية مستطرداً:"و إن حاجة بعض الناس إلى بعض، صفة لازمة في طبائعهم، و خلقة قائمة في جواهرهم، و ثابتة لا تزايلهم، و محيطة بجماعتهم، و مشتملة على أدناهم و أقصاهم (...) فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى،

و احتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى معاني متضمنة، و أسباب متصلة،

و حبال منعقدة (...) فأدناهم مسخر لأقصاهم و أجلهم ميسر لأدقهم، و على ذلك أحوج الملوك إلى السوقة في باب و أحوج السوقة إلى الملوك في باب، و كذلك الغني و الفقير و العبد و سيده"[13] .

ذلك أن الاجتماع قائم على مبدأ، و الاتصال مقرون بأسباب وثيقة موصولة بغايات جليلة في حياتهم لا تتحقق إلا بآلة تضمن لهم البقاء و الإبقاء على سلامة نسيجهم العضوي المنتظم، آلة اختص بها الإنسان في نظامه

الاجتماعي دون سائر المخلوقات ، حتى جعلها الجاحظ عنواناً لأحد أبرز كتبه فيقول لنا أن ذلك الرابط " **هو البيان الذي جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم، معبراً عن حقائق حاجتهم، و معرفاً مواضع سد الخلَّة، و رفع الشبهة، و مداواة الحيرة (...) و قال الله عز وجل[و لو جعلناه ملَكاً لجعلناه رجلاً] لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، و طباعه بطباعه آنس،**

وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه(...) و جعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم، و الترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم "[14].

فالنظم إذن فلسفة متكاملة الأعضاء ابتدأ الجاحظ جهوده في تحيينها – مدفوعاً بروح الحمية على الدين و اللغة العربية– من أوسع معاني الكون لينتهي إلي تبرير ضرورة البيان الخطابي بين بني البشر جاعلاً منه المدخل الشرعي لشرح نظامه و تبيان أقسامه و آلياته.

2– تحيين مصطلحات النظم:

أ– مصطلح التخيُّر :

ينطلق الجاحظ نحو هدفه الجمالي الأرقى و هو البلاغة من أولى خطوات النظم و هي خطوة التخير. و في تخير اللفظ تعريف شاف للبلاغة حسب عمر بن عبيد الذي سُئِل في البيان و التبيين عن معنى البلاغة فصال و جال في مجالات الأخلاق و الدين و الأثر حتى عيي، و في كل مرة كان مخاطبه يجيبه ليس هذا أريد، إلى أن وقع على تعريف البلاغة الأدبية حينما قال له:"فكأنك إنما تريد تخير اللفظ في حسن الإفهام؟ قال : نعم. "[15]

و التخير هو انتقاء الألفاظ لتلائم الموقف الخطابي لذا فهي لفظة جامعة لمستويين أسلوبيين الأول انتقاء الألفاظ و الثاني موافقة لسياق الموقف أو الحال و هما خطوتان تأسيسيتان في نظرية النظم . بحيث عرف تحيين

المصطلحين الوظيفيين توسعات نظرية دققت البحث فيهما اعتماداً على إشارات القدماء، و زادت عليها بعض الإضافات بحسب ما يوافق ملابسات و ظروف كل حقبة في العصور اللاحقة . على أن الغاية التي كان ينتظرها الجاحظ من وراء مفهوم التخير هي النتيجة النهائية التي ستحدد بلاغة الكلام من عدمها من وراء تلك العملية الانتقائية المقامية في قوله:" لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتي ليسابق معناه لفظه، و لفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسرع من معناه إلى قلبك"[16] .

فنتيجة عملية التخير في الألفاظ و مقامات التخاطب هي ذلك التوازن بين اللفظ و المعنى فلا يصل الأول إلى مقره و هو السمع قبل أن يصل الثاني إلى مستودعه و هو القلب. و هي لعمري نتيجة تحمل من الإعجاز في تحقيقها ما تحمله من تشريف لمقام من يحوزها، فيستحق بها لقب البليغ .

و قد أشار الجاحظ إلى ذروة هذه الجمالية الخطابية و هي "**اجتماع آلة البلاغة**" و هي جملة من الشروط التي لن يصلها إلا بحسن التخير و قوة التمييز ، فيقول :"أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، و ذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير الألفاظ"[17].

و نعثر على عنصر التخير هذا ضمن آليات الخطابة و شروطها حينما يقول الجاحظ على لسان أحد الخطباء و هو أبو دواد بن حريز:"رأس الخطابة الطبع، و عمودها الدربة، و جناحاها رواية الكلام، و حليها الإعراب، و بهاؤها تخير اللفظ"[18]. و هي شروط دقيقة و مصطلحات نظمية صارمة لا تتحقق الخطابة من دونها و لا تستقيم لصاحبها إلا إذا امتلك تلك الشروط التي تمثل في مجملها ناصية البيان نطقاً و حساً، و إدراكاً لمواقع الألفاظ و وزنها الدلالي، و قوتها الإيحائية، بعد أن يحقق موافقة مقتضى الحال.

و هو مستوى فوق تداولي قفز بصاحبه و لغته من درجة الإبلاغ إلى درجة الإمتاع. و هي درجة ستتطور في سلم التحيين من عصر لآخر حتى تبلغ ما نطلق عليه اليوم بشعرية الخطاب و هي إحدى تقسيمات علم النص المعاصر.

ب- مصطلح الائتلاف:

يقترب الجاحظ من المفهوم الاصطلاحي للنظم أكثر فأكثر حينما تصل به مجهوداته في التحيين إلى الحديث عن ظاهرة الائتلاف و الائتلاف كما نلاحظ هو صنو النظم و مرادفه و قرينه في الدلالة . و الائتلاف في قاموس الجاحظ " هو التجاور المتجانس بين حروف اللفظة ،و أجزاء الكلام"[19] . و نستمد معنى الائتلاف عند الجاحظ من حديثه عن غير المؤتلف؛ أي من عكسه ، حينما ترى الكلام:" متفرقاً غير مؤتلف و لا متجاور، و كذلك حروف الكلام و أجزء البيت من الشعر(...) تراها مختلفة متباينة، و متنافرة مستكرهة، تشق على اللسان و تكده"[20].و يترجم لنا الجاحظ في مقام آخر مصطلح الائتلاف بمعنى تلاحم الأجزاء؛ و هو التجانس الإيقاعي بين الحروف و الكلمات، و تآلف أجزاء الوزن في الشعر في قوله:" و أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء"[21]. و كل تلك المعاني تصب في خانة ما أصبح اليوم يسمى النظم الذي تداولت عليه كما نلاحظ جملة من المصطلحات عبر مراحل عسيرة من تحيينه في كل عصر، و في كل مرحلة نشهد تطوراً ملحوظاً و اقتراباً أشد من بلاغة الخطاب الاصطلاحي لهذا المفهوم العريق في الفكر اللغوي العربي.

ج- مصطلح السبك:

السبك هو قرب المصطلحات مفهوماً و مطابقة، لمصطلح النظم الذي لم يكن قد ظهر بعد لكننا نستشعر بأن مصطلح السبك يعني انتظام الكلام بحيث تتحقق سلاسته و بلاغته، و السبك بما هو براعة الصياغة، هو أرقى ما

وصلت إليه مصطلحات الجاحظ من تحيين حينما تهدف إلى تحقيق انسجام إيقاع حروف الألفاظ في بنية اللفظ الواحد من جهة، و انسجام الألفاظ نفسها في بنية الجملة أو المقطع الشعري و هذا ما قصد إليه الجاحظ حينما قال في نظم الشعر:" **أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أُفرغ إفراغاً واحداً، و سُبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان(...) و كذلك حروف الكلام و أجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة مُلساً، و لينة المعاطف سهلة(...) و رطبة مواتية، سلسة النظام خفيفة على اللسان؛ حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، و حتى كأن الكلمة بأسرها حرفٌ واحد.**"(22).و هذا منتهى ما وصل إلية تحيين المصطلحات التداولية لخطاب النظم في القرن الثالث الهجري، فوصل إلى اكتماله في مصطلح النظم بعد سلسلة طويلة من الاجتهاد و التطور في المصطلحات المتناسل بعضها عن بعض سعياً نحو تحصيل أكبر قدر من الجمالية اللفظية . و بحثاً عن المصطلحات القادرة على حمل تلك الشحنة

و الدالة عليها بأوفر المصطلحات بلاغة ، انطلاقاً من المجهود التداولي في التحيين و وصولاً إلى المفهوم الجمالي المافوق تداولي الذي يتوخى سبل

و ضروب الإمتاع بعد استيفاء مزية الإبلاغ التي أكملتها بامتياز البلاغة القديمة و وضعتها على ضفاف الجمالية التي ننتشي اليوم بمنجزاتها في شعرية الخطاب و علم النص.

ثانياً- المسار الفلسفي- جهود أبي حيان التوحيدي (القرن الرابع الهجري):

بعد أن رأينا جهود التحيين لمصطلح النظم عند أحد أهم البلغاء في تاريخ اللغة العربية، سنواصل بحث تطور المفاهيم التداولية لهذا المصطلح لدى اللاحقين و لنغير الاختصاص عسانا نحقق تنوع الفائدة و نحصد نتائج جديدة، و لتكن

وجهتنا في تتبع مفهوم النظم وجهة فلسفية لنبحث أبعاده
و تجلياته و ما بذل في تحيينه من جهود لدى أحد فلاسفة العرب من أبناء القرن الرابع الهجري و هو أبو حيان التوحيدي.

1- تحيين مصطلح النظم:

أ- مصطلح " المُرَكَّبْ"

لما كان لكل لغة شأو، فشأو اللغة العربية – في نظر أبي حيان التوحيدي- هو الإبداع فيها، و آية الإبداع هو تحقيق البلاغة في حسن الخطاب و الكمال في بنائه و تأليفه، و لذلك راح يطلب عبر كامل كتبه و آرائه النقدية المتفرقة عن آيات البلاغة الكامنة حصراً في نظم الكلام بما هو عبقرية لغوية تعني اكتمال تأليف النص، غير أنه يطلق على آلية النظم مصطلح "**المُرَكَّب**"، و لا يتحقق هذا المفهوم إلا إذا كان الكلام حصلية تركيب بين ملكة البديهة
و الاجتهاد في الرويَّة (أي الطبع و الصنعة مجتمعين). و هو مفاد قوله على لسان شيخه أبي سليمان:" الكلام ينبعث في أول مبادئه إما عفو البديهة، و إما من كد الرويَّة، و إما أن يكون مُرَكَّباً منهما... و فضيلة المُرَكَّبْ منهما أنه يكون أوفى... على أنه إذا إذا خلص هذا **المُرَكَّب** من شوائب التكلف،
و شوائن التعسف، كان بليغاً مقبولاً، رائعاً حلواً، تحتضنه الصدور،
و تختلسه الآذان، و تنتهبه المجالس، و يتنافس فيه المنافس، بعد المنافس،
و التفاضل الواقع من البلغاء في النظم و النثر، إنما هو في هذا **المُرَكَّب** الذي يسمى تأليفاً و رصفاً"[23]. و بالتالي فمفهوم النظم عند التوحيدي مفهوم مركب من خاصيتين، أو قل جناحين هما البديهة و الرويَّة تحلق بهما بلاغة الخطاب في رحاب الجمالية التي بدأت تتبلور بملامح شعرية على يد أبي حيان التوحيدي.

ب- مصطلح الوحدة في التأليف:

لا يطيل أبو حيان التوحيدي حتى يبادرنا بمصطلح نظمي ثان و هو مصطلح "الوحدة" الذي هو ضرب من التآلف و التجانس في الكلام، و آية من آيات شرفه، يقول التوحيدي مادحاً النثر:" و من شرفه أيضاً أن الوحدة فيه أظهر، و أثرها فيه أشهر، و التكلف منه أبعد، و هو إلى الصفاء أقرب، و لا توجد الوحدة غالبة على شيء إلا كان ذلك دليلا على حسن ذلك الشيء و بقائه، و بهائه، و نقائه"[24]. و المقصود بالوحدة هنا هي وحدة الأعضاء، أو الوحدة العضوية الكامنة في مختلف أجزاء البناء، فتجعل منه في تلاحمها جسماً واحداً و كلاً متعاضداً، و هذا ما يصنع جمالية البناء . فالوحدة حسبه دليل على الحسن، أي أن النظم و الاتساق إنما قُصِدَ إليه بغرض جمالي بحت. حتى تتحقق شعرية الكلام المنشودة من وراء كل هذه الجهود التحيينية لمصطلحات الخطاب في تداولها المعرفي، و تطورها الدلالي من عصر لآخر و من عَلَمٍ لآخر.

ج- مصطلح النظم:

بعد سلسلة طويلة من جهود التحيين، و استيفاء مراحل الولادة الطبيعية نصل مع التوحيدي إلى اكتمال صيغة مصطلح النظم، الذي كان يقصد به في مراحله الأولى: ترابط معاني النحو؛ أي اتباع سمت العرب في كلامهم، باتباع ما هو مألوف، و معروف، لضمان شرط الصحة أولاً، و تمام آلة السلامة في الخطاب ثانياً، و التوجه شطر تخير صيغه الجمالية ثالثاً، و في هذا المعنى يقول التوحيدي:"... صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف، و الإعراب المعروف"[25].و إذ اختص النظم لديه بالنظام النحوي الذي هو نظام من المعاني يستوحي دلالات الصحة و الاكتمال من توزعه المتوازن بين

تناسب الحروف في مواضعها و تناسب الألفاظ في الجملة في نظام علاماتي أساسه التقابل بين دلالة الإشارة الضمنية و بنية العبارة الصريحة. و يحدد التوحيدي الإطار المعرفي لهذا المفهوم بقوله على لسان محدثه أبي سعيد:" معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ و سكناته، و بين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، و بين تأليف الكلام بالتقديم
و التأخير و توخي الصواب في ذلك و تجنب الخطأمن ذلك، و إن زاغ شيء عن هذا النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائغاً بالاستعمال النادر و التأويل البعيد"[26]. و إيذاناً باكتمال آلية النظم يستأنف التوحيدي جهود التحيين في هذا المفهوم ليدخل به نظرية الشعرية التي ينطلق فيها من المصطلح الجمالي المعروف قديماً بالبلاغة.

2- أبو حيان التوحيدي من بلاغة النظم إلى مفهوم الشعرية:

يستوحي أبو حيان التوحيدي من أستاذه أبي سليمان في نهاية حديثه عن المفاضلة بين المنظوم و المنثور في كتاب "**الإمتاع و المؤانسة**" مقاربة تنظيرية يعدد فيها ضروب البلاغة و ألوانها، مبرزاً مواطن الجمالية في كل منها. ممهداً لمفهوم الشعرية انطلاقاً من بلاغة الخطاب التي ألفيناها تنقسم لديه إلى نمطين كبيرين يمكن أن نطلق عليهما مصطلحي: **بلاغة القول** و **بلاغة التلقي**، و كل نمط يحوي أضرب فرعية من جنسه على النحو التالي:

أ- بلاغة القول: و يتميز هذا النمط من الخطاب بكونه خطاباً ملموساً أي محسوساً، و قابلاً للممارسة، و خاضعاً لمعايير التجريب بالقول و الكتابة،

و يتكون هذا النمط من أربعة أضرب فرعية هي: بلاغة الشعر، و بلاغة الخطابة، و بلاغة النثر، و بلاغة المثل. و نتبين أقسامها لديه في الأشكال التالية:

أ-1 **بلاغة الشعر**:يقول التوحيدي : " فأما بلاغة الشعر فأن يكون نحوه مقبولاً، و المعنى من كل ناحية مكشوفاً، و اللفظ من الغريب بريئاً، و الكناية لطيفة، و التصريح احتجاجاً، و المؤاخاة موجودة، و المواءمة ظاهرة"[27].

و ما المؤاخاة و المواءمة إلا مصطلحان إضافيان لمفهوم النظم و نظريته لدى التوحيدي يستبعد بهما هجنة التنافر و يستجلب بهما وحدة الأعضاء

و اتساقها.لو بلورنا عناصر الخطاب الموصوفة في هذه الفقرة باعتبارها مفاهيم خطابية تداولية و قابلناها بصفاتها باعتبارها مفاهيم جمالية لجاءت في جدول يكشف دقة كلام التوحيدي و براعة التصنيف التي يتوخاها في نظريته البلاغية للخطاب. فنقف على إقنومين متناسبين في نظرية النظم لدى التوحيدي أحدهما ذو بعد تداولي و الآخر ذو بعد جمالي على النحو الآتي:

عناصر الخطاب اللساني (مصطلحات تداولية)	صفاتها الجمالية (مفاهيم مافوق تداولية)
النحو	مقبولاً
المعنى	مكشوفاً
اللفظ	من الغريب بريئاً
الكناية	لطيفة
التصريح	احتجاجاً
المؤاخاة	موجودة

المواءمة	ظاهرة

أ-2- بلاغة الخطابة:

يقول التوحيدي: " و أما بلاغة الخطابة فأن يكون اللفظ قريباً، و الإشارة فيها غالبة، و السجع عليها مستولياً، و الوهم في أضعافها سابحاً، و تكون فقرها قصاراً، و يكون رِكابُها شوارد إبل"[28]. و تشبيه متون الخطب بشوارد الإبل إشارة إلى تنوعها و ندرة أساليبها و معانيها و هروبها من التكرار، و الاجترار. فتكون كل خطبة ولادة جديدة، و نادرة شاردة عن سائر الخطب. و هنا نلحظ الاقتراب المطّرد من الجمالية و القصد الواضح إلى شعرية الخطاب، و تقصي أسبابها، و الاستدلال على مواطنها، و فرد ميزاتها و تحديد أطرها.

و لو اتخذنا لبلاغة الخطابة جدولها التقسيمي لألفيناه مفصلاً على النحو التالي:

عناصر الخطاب اللساني (مصطلحات تداولية)	صفاتها الجمالية (مفاهيم مافوق تداولية)
اللفظ	قريباً
الإشارة	غالبة
السجع	مستولياً
الوهم	سابحاً
فِقَرها	قصاراً
ركابها	شوارد الإبل

أ-3- بلاغة النثر:

يقول التوحيدي: " و أما بلاغة النثر فأن يكون اللفظ متناولاً، و المعنى مشهوراً، و التهذيب مستعملاً، و التأليف سهلاً، و المراد سليماً، و الرونق عالياً، و الحواشي رقيقة، و الصفائح مصقولة، و الأمثلة خفيفة المأخذ، و الهوادي متصلة، و الأعجاز مفصلة"[29].

و يتكشف بلاغة النثر عند التوحيدي على سحرها حينما نقرِها وفق هذا الجدول:

عناصر الخطاب اللساني (مصطلحات تداولية)	صفاتها الجمالية (مفاهيم مافوق تداولية)
اللفظ	متناولاً
المعنى	مشهوراً
التهذيب	مستعملاً
التأليف	سهلاً
المراد	سليماً
الرونق	عالياً
الحواشي	رقيقة
الصفائح	مصقولة
الأمثلة	خفيفة المأخذ

الهوادي	متصلة
الأعجاز	مفصلة

أ- 4- بلاغة المثل:

يقول التوحيدي في أحكام هذا الضرب من البلاغة:" و أما بلاغة المثل فأن يكون اللفظ مقتضباً، و الحذف محتملاً، و الصورة محفوظة، و المرمى لطيفاً، و التلويح كافياً، و الإشارة مُغنية، و العبارة سائرة"[30].

ثم لو حصرنا عناصر خطاب المثل و صفاته في جدولها لجاءت كالآتي:

عناصر الخطاب اللساني (مصطلحات تداولية)	صفاتها الجمالية (مفاهيم مافوق تداولية)
اللفظ	مقتضباً
الحذف	محتملاً
الصورة	محفوظة
المرمى	لطيفاً
التلويح	كافياً
الإشارة	مغنية
العبارة	سائرة

ب- بلاغة التلقي

يختلف هذا النمط من البلاغة عن النوع السابق (بلاغة القول) من حيث الجنس؛ فإذا كان النوع السابق الذي يتكون من: بلاغة الشعر، و الخطابة، و النثر، و المثل يتسم بكونه ملموساً، أي قابل للتجسيد نطقاً

و كتابة، و خاضعاً للتجسيد العملي، فإن هذا النوع من البلاغة(بلاغة التلقي) و ضروبه يتميز بالتجريد؛ أي إنه ضمني خفي، و مكنون في النفس، و لا يمكن لمسه أو تطبيقه إلاّ إذا استُثْمِر في النوع التجريبي السابق أي عبر: الشعر، و النخطابة، و النثر و المثل. و باقي ضروب القول.

ب-1- بلاغة العقل:

و يقصد بالعقل أن يعقل الإنسان المتلقي ما يلقى إليه من خطابات، بحيث يفترض فيه أن يؤتى ملكة التمييز العقلي بين مختلف معاني و مقاصد الكلام.

يقول التوحيدي في هذا الضرب:" و أما بلاغة العقل فأن يكون نصيب المفهوم من الكلام أسبق إلى النفس من مسموعه إلى الأذن، و تكون الفائدة من طريق المعنى أبلغ من ترصيع اللفظ و تقفية الحروف، و تكون البساطة فيه أغلب من التركيب، و يكون المقصود ملحوظاً في عُرض السنن، و المرمى يُتلقى بالوهم لحسن الترتيب[31]. و إذا شئنا أن نضع جدولاً لهذا الضرب من البلاغة لألفيناه يختلف من حيث النمط عن الجدول السابق :

عناصر الخطاب العقلي	قيمها الجمالية
– المفهوم من الكلام – الفائدة عن طريق المعنى – البساطة – المقصود – المرمى	– أسبق من مسموعه إلى الأذن – أبلغ من ترصيع اللفظ و تقفية الحروف. – أغلب من التركيب – ملحوظاً في عُرض السنن – يُتلقى بالوهم لحسن الترتيب.

ب–2– بلاغة التأويل:و المقصود بالتأويل تأتي القدرة على التمييز و التفسير من تحصيل معاني الكلام الذي يلقى على مسامع المتلقي.

يقول التوحيدي في هذا الضرب من البلاغة: " و أما بلاغة التأويل فهي التي تُحوج لغموضها إلى التدبر، و التصفح، و هذان يفيدان من المسموع وجوهاً مختلفة كثيرة نافعة، و بهذه البلاغة يُتسع في أسرار (معاني) الدين و الدنيا، و هي التي تأوَّلها العلماء بالاستنباط من كلام الله عز و جل، و كلام رسوله(ص)... و بها تفاضلوا ، و عليها تجادلوا، و فيها تنافسوا، و منها استُلموا، و بها اشتغلوا... و جولان النفس و اعتصار الفكر إنما يكون بهذا

النمط في أعماق هذا الفن؛ و ها هنا تنثال الفوائد، و تكثر العجائب، و تتلاقح الخواطر، و تتلاحق الهمم، و من أجلها يستعان بقوى البلاغات المتقدمة بالصفات الممثلة، حتى تكون مُعينة و رافدة في إثارة المعنى المدفون، و إنارة المراد المخزون"[32].و قول التوحيدي: " و من أجلها يُستعان بالبلاغات المتقدمة بالصفات الممثلة" يعني أنه من أجل تحصيلها و رؤيتها علينا استثمارها عند تلقي النمط السابق من البلاغة؛ أي بلاغة القول و ضروبها من بلاغة شعر و خطابة، ونثر، و مثل، كي نشهد تحقق بلاغة التلقي. و جمالياته.و أما الجدول الذي يُحصِّل غايات هذه البلاغة و فائدتها فيكون على الشكل التالي:

عناصر الخطاب العقلي	قيمها الجمالية
- بلاغة التأويل. - جولان النفس، و اعتصار الفكر.	- بها يُتسع في أسرار الدين و الدنيا- تأولها العلماء بالاستنباط من كلام الله و كلام الرسول (ص)- بها تفاضلوا - عليها تجادلوا- و فيها تنافسوا- و منها استُلموا- و بها اشتغلوا. - ها هنا تنثال الفوائد- تكثر العجائب- تتلاقح الخواطر- تتلاحق الهمم- يستعان بقوى البلاغات المتقدمة(بلاغة القول)

و إذا ما استجمعنا جداول النمطين من البلاغة (بلاغة القول و بلاغة التلقي) في جدول موحد لتكشف لنا الأمر عن نظرية دقيقة و متكاملة. حق لها أن تتبوأ الصدارة في الدراسات البلاغية و النظرية الجمالية للخطاب اللغوي. و هي النظرية التالية:

أً- بلاغة القول:

بلاغة الشعر	
عناصر الخطاب اللساني (مفاهيم تداولية)	**صفاتها الجمالية (مفاهيم مافوق تداولية)**
النحو	مقبولاً
المعنى	مكشوفاً
اللفظ	من الغريب بريئاً
الكناية	لطيفة
التصريح	احتجاجاً
المؤاخاة	موجودة
المواءمة	ظاهرة
بلاغة الخطابة	

عناصر الخطاب اللساني (مفاهيم تداولية)	صفاتها الجمالية (مفاهيم مافوق تداولية)
اللفظ	قريباً
الإشارة	غالبة
السجع	مستولياً
الوهم	سابحاً
فِقَرها	قصاراً
ركابها	شوارد الإبل
بلاغة النثر	
عناصر الخطاب اللساني (مفاهيم تداولية)	**صفاتها الجمالية (مفاهيم مافوق تداولية)**
اللفظ	متناولاً
المعنى	مشهوراً
التهذيب	مستعملاً
التأليف	سهلاً
المراد	سليماً
الرونق	عالياً
الحواشي	رقيقة
الصفائح	مصقولة
الأمثلة	خفيفة المأخذ
الهوادي	متصلة
الأعجاز	مفصلة
بلاغة المثـل	

عناصر الخطاب اللساني (مفاهيم تداولية)	صفاتها الجمالية (مفاهيم مافوق تداولية)
النحو	مقبولاً
المعنى	مكشوفاً
اللفظ	من الغريب بريئاً
الكناية	لطيفة
التصريح	احتجاجاً
المؤاخاة	موجودة
المواءمة	ظاهرة

ب- بلاغة التلقي:

بلاغة العقل	
عناصر الخطاب العقلي	**قيمها الجمالية**
– المفهوم من الكلام – الفائدة عن طريق المعنى – البساطة – المقصود – المرمى	– أسبق من مسموعه إلى الأذن – أبلغ من ترصيع اللفظ و تقفية الحروف. – أغلب من التركيب – ملحوظاً في عُرض السنن – يُتلقى بالوهم لحسن الترتيب.
بلاغة التأويل	
عناصر الخطاب العقلي	**قيمها الجمالية**
– بلاغة التأويل. – جولان النفس، و اعتصار الفكر.	– بها يُتسع في أسرار الدين و الدنيا– تأولها العلماء بالاستنباط من كلام الله و كلام الرسول (ص)– بها تفاضلوا – عليها تجادلوا– و فيها تنافسوا– و منها استُلموا– و بها اشتغلوا. – ها هنا تتثال الفوائد– تكثر العجائب– تتلاقح الخواطر– تتلاحق الهمم– يستعان بقوى البلاغات المتقدمة(بلاغة القول)

3- مفهوم الشعرية لدى أبي حيان التوحيدي:

في محصلة جهوده التي استحصدناها في هذه الدراسة نقف أخيراً على خلاصة النظرية الجمالية المتكاملة للخطاب لدى أبي حيان التوحيدي

و هو مفهوم الشعرية التي توحد النص النثري بالنص الشعري لكأن رومان جاكوبسون قد اقتبس تعريفه للشعرية من هذا النص للتوحيدي في كتابه الإمتاع و المؤانسة ، حينما تسقط صفات المنظوم على المنثور ، و يلبس المنثور شعرية المنظوم ، و يتوحد الجنسان في شكل شعري تفطن له ابن هندو الكاتب الذي يطلعنا التوحيدي على مقاربته التي تقول بأنه:" إذا نُظر في النظم و النثرعلى استيعاب أحوالهما و شرائطهما، و الاطلاع على هواديهما و تواليهما، كان أن المنظوم فيه نثر من جهة، و المنثور فيه نظم من وجه،

و لولا أنهما يستهمان هذا النعت لما ائتلفا و لا اختلفا"[33] .

و هذا هو حد الشعرية في نظريتها المعاصرة التي استبق القدماء تأطيرها و تنظيرها لكن شاء المتعلمون المعاصرون أن يأخذوها من المرجع الغربي على أنه المصدر. و المكتشف . رغم أن هذه النظرية متكاملة القوام و الأطر منذ القرن الرابع الهجري.

ثالثاً المسار النحوي- جهود عبد القاهر الجرجاني (القرن الخامس الهجري) :

إذا كنا قد أبرزنا جهود التحيين لمصطلحي النظم و البلاغة الشعرية للكلام لدى الجاحظ كممثل للرأي البلاغي ، ثم غيرنا الاختصاص لنفيد من آراء

و نظريات أبي حيان التوحيدي كممثل للرأي الفلسفي. فإننا سننهي هذه الجهود بالرأي النحوي الذي يضطلع به عبد القاهر الجرجاني الذي عرفت نظرية النظم

على يديه اكتمالها. و تجلى المصطلح كحقيقة فرضت نفسها على الدرس النحوي و البلاغي العربي.

1 – النظم نسق بنيوي علائقي للكلم:

لقد استخلص الجرجاني بحصافة جهود سابقيه من البلاغيين و النحاة في تحيينه لمصطلح النظم الذي يكشف للوهلة الأولى(ونظراً لاكتمال دلالاته و آلياته و غاياته) بأنه قد قطع أشواطاً طويلة من جهود التحيين، و عرف تقويمات و تطورات عديدة في مسار التجديد و التحديد، و لملمة مفاهيمه من مباحث لغوية عدة قبل أن يصل إلى الجرجاني. الذي كان اجتهاده يتلخص في جمع المتفرق من تلك الدلالات. و الطواف بها بين تلك المباحث
(و خاصة النحوي و البلاغي و التركيبي منها) لحشد أكبر كم من الخصائص المميزة لهذا المصطلح و تبيان مكامن خطورته و ضرورته و مواطن دلالته، و أسرار بلاغته و إعجازه في لغة العرب بداية من آيات القرآن الكريم انتهاءً بآيات البيان في ديوان العرب من أبيات شعرية و أمثال سائرة. و قد كان كثير العودة إلى جهود القدامى و في مقدمتهم إمام البلاغة العربية "الجاحظ".
غير أن الجرجاني يتميز عن كل سابقيه بدقة الملاحظة في اجتلاب أدلته.
و اعتماده على قياسات و مقارنات دقيقة في إظهار قداسة مصطلح النظم و حظوته لدى المتكلم بالعربية. و قد امتاز الرجل في ذلك المجهود الاستباقي في تتبع الوظيفية البنيوية للمصطلح التي جعلت من جهود رواد المدرسة البنيوية الغربية مجرد فلسفة وجودية غربية المضمون. بينما جعل من شكلها الخطابي الألسني محض تكرار لصياغات سبقهم إليها الجرجاني منذ أمد بعيد.
و في هذه الوظيفة النسقية البنيوية يقول الجرجاني:" اعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم و لا ترتيب حتى

يعلق بعضها ببعض، و يُبنى بعضها على بعض، و تجعل هذه بسبب من تلك... فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها (نظام العلاقات) و البناء، و جعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها... و أن الكلم تترتب في النطق، بسبب ترتب معانيها في النفس، و أنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً
و أصداء حروف لما وقع في ضمير و لا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم"[34].

و هذا الترتيب و البناء السببي القائم على علاقات بينية شكلية بين ألفاظ و تقاسيم الكلام من جهة و بينها و بين ترتيب المعاني في النفس من جهة أخرى. هو الفلسفة التي ينطلق منها الجرجاني في تحيينه النهائي لمصطلح النظم في عصره. لتتلوه مراحل تحيينية أخرى تبدو ضرورية للانتقال به إلى مراحل متقدمة تقوم مساره في مباحث النحو والبلاغة و التركيب.

2- النظم اتحاد أجزاء الكلام و معانيه:

يضرب لنا الجرجاني مثلاً في اتحاد أجزاء الكلام و صقلها فيقول : " و اعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة"[35]. و مما تهدف إليه الوحدة بين أجزاء الكلام قوله:" و اعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر و يغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام و يدخل بعضها في بعض، و يشتد ارتباط ثانٍ منها بأول، و أن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً، و أن يكون حالك فيها كحال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك"[36]. و يبدو أن مصطلح اتحاد أجزاء الكلام يقصد إلى غاية تقع في ما بعد هذا الاتحاد نفسه، و هي التوازن بين هذه الأجزاء؛ و التوازن

هنا صورة بلاغية و بعد جمالي للكلام و غاية ما فوق تداولية تسعى من وراء معيار الصحة المعياري إلى مزية الجمال .

3- النظم بلاغة و فصاحة:

من أبرز مظاهر الجمال اللغوي التي تغنى بها القدماء هي فصاحة الكلام و بلاغة نظمها . و في تحقق الفصاحة و تقسيمها ينص الجرجاني على أن:" الكلام الفصيح يتقسم قسمين: قسم تعزى المزية و الحسن فيه إلى اللفظ، و قسم يعزى ذلك فيه إلى النظم. فالقسم الأول الكناية و الاستعارة و التمثيل الكائن على حد الاستعارة، و كل ما كان فيه على جملة مجاز و اتساع و عدول باللفظ عن الظاهر" [37].

4- النظم خاصية وظيفية لمعاني النحو:

يختص الجرجاني النحو الوظيفي بصفة النظم و ذلك ملحوظ منذ عنوان كتابه:"دلائل الإعجاز في معاني النحو". و يبدو أن النحو بما هو اتباع سمت العرب في كلامهم هو السبب الرئيس الذي استدعى النظم، بل إن آلية النظم لم تكن لتتبلور خارج إطار النحو الوظيفي. و هذا ما يتردد في عدة مقاطع من كتاب دلائل الإعجاز مثل قوله:"واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، و تعمل على قوانينه و أصوله، و تعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها... و ذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب و فروقه"[38]. و هذا كلام لا تخفى دقته النظرية و العملية في أن النظم لا يتحقق بغير الإحاطة بكامل وجوهه النحوية الوظيفية. و يلتفت إلى الجانب المعنوي و الفكري للنحو فيقول:"واعلم أني لست أقول إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلاً، و لكني أقول إنه

لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو."[39]. و يشدد في موضع آخر على ضرورة الترابط النحوي بين الجمل في قوله:" قد علمنا علم ضرورة أنا لو بقينا الدهر الأطول نصعِّد و نصوب و نبحث و ننقب، نبتغي كلمة قد اتصلت بصاحبة لها، و لفظة قد انتظمت مع أختها، من غير أن نتوخى فيما بينهما معنى من معاني النحو"[40]. و يختم الجرجاني رأيه في النظم حاصراً وظيفته الأساسية في النحوي قائلاً :"هذا و أمر النظم في أنه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم. و أنك ترتب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيب الألفاظ في نطقك، و إنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني لم يُتصور أن يجب فيها نظم و ترتيب"[41].و بهذا ينقل الجرجاني مفهوم النحو من المعيارية الصارمة إلى الوظيفية الجمالية من حيث كونه مفهوماً تداولياً يضفي – مثله مثل البلاغة– على الكلم صبغة جمالية بفضل ميزة الترتيب الذي انقسم بحسب اللفظ و المعنى إلى ترتيب نظمي للألفاظ و الجمل النحوية تبعاً لتراتب المعاني في النفس و نظمها في الفكر. فالبلاغة تتحقق في النفس قبل أن تجسدها الفصاحة عبر آلية النظم. و بهذا يمكن اعتبار علمي النحو و البلاغة، بما هما قطبا نظرية النظم و معياران ثابتان لسلامة التعبير اللغوي و بيانه، و سبيلان ناجعان أثبتا لدى القدماء كما لدى المحدثين قدرتهما على تأمين العبور من مفاهيم النظم التأسيسي إلى أنساق الشعرية في أحدث صياغاتها.

الهوامش و المراجع

(1) – دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط1 2005–2006. ص 92– 93.

(2) – ميجان الرويلي و سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 2002. ص 100– 101.

(3) – مصطلح: " **ما فوق تداولية**" أطلقه الباحث خليفة بوجادي في إحدى دراساته لتداولية النص الشعري قاصداً به النزوع الجمالي للصيغ اللأدبية المتداولة التي تتخطى في مقاصدها مجرد الإبلاغ و تتوقف وظيفتها عند حدود الإفهام . و هو يريد أن يتجاوز المفهوم التداولي هذه الخطوة الأولية الابتدائية ليغوص في مغامرة تنشد الإمتاع و الجمالية و التخييل. و من هنا اشترع الباحث بله اقترح أن يكون للشعر مكانة في الدرس التداولي. بالنظر لما يشتحن به من جماليات و أبعاد فوق دلالية من شأنها أن تضيف لهذا الدرس أبعاد إبداعية أخرى و تفتحه على أفق جمالي كان سبباً رئيساً في إخراج جميع أضرب الشعر من المساق التداولي . و هذا ما يعارضه الباحث بشدة في مقاربته التي تستحق التوقف و المناقشة.

ينظر: خليفة بوجادي: في ما فوق تداولية النص الشعري من خلال قصائد (عبد الملك بومنجل) – مجلة الناص– إصدارات قسم اللغة و الأدب العربي – جامعة جيجل، الجزائر. العدد السابع (مارس 2007). ص 41–42.

(4) – زكي نجيب محمود: المعقول و اللامعقول في تراثنا الفكري. دار الشروق . دط– دت– ص 84.

(5) – الجاحظ: الرسائل . تحقيق عبد السلام هارون . دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى 1991. الجزء 3. الفصل الثامن: من كتابه في حجج النبوة . ص 224.

(6)– الجاحظ: الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون. دار إحياء التراث العربي. توزيع مكتبة البابي الحلبي.مصر. ط1.1958.ص 09.

(7) – يقول عبد السلام هارون محقق كتاب الحيوان " أحب أن أشير هنا إلى أن الجاحظ ابتدأ في تأليف كتاب الحيوان قبل أن يبدأ في صنوه الآخر في الذيع و الشهرة" البيان و التبيين" ينظر مقدمة المحقق في كتاب الحيوان. مصدر سابق ص 26.

(8) – الجاحظ: الحيوان ص 09.

(9) – ينظر مثلاً: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون . مكتبة الخانجي بمصر و المثنى ببغداد. توزيع القاهرة . الطبعة الثانية 1960. ج1– ص 44.

(10) – البلغم و هو خلط من أخلاط البدن الأربعة مند القدماء و التي توازي أخلاط الكون الأربعة الهواء الماء التراب النار. و البلغم هنا على الأرجح هو الغدد. ينظر معجم لاروس عربي عربي تأليف خليل الجر– مكتبة أنطون. لبنان 1987. ص 248.

(11) – الجاحظ: الحيوان ج1– ص 212. و الأوتاد الأربع هي التي ذكرها آنفاً (النار – الأرض– الهواء– الماء).

(12) – الجاحظ: كتاب المعلمين ضمن رسائل الجاحظ ج 3 . ص 33.

(13) – الجاحظ: الحيوان. ج 1 . ص 24– 44.

(14) – نفسه ص 44– 45.

(15) – الجاحظ البيان و التبيين. ج1. ص 29.

(16) – نفسه . ج1. ص 151.

(17) – نفسه. ج1. ص 92.

(18) – نفسه. ج1. ص 44.

(19) – ميشال عاصي: مفاهيم الجمالية النقد في أدب الجاحظ، مؤسسة نوفل ، بيروت لبنان. د.ت ص 139.

(20) – الجاحظ. البيان و التبيين. ج1. ص 67.

(21) – نفسه ج1. ص 67.

(22) – نفسه ص 67.

(23) – أبو حيان التوحيدي: الإمتاع و المؤانسة، تقديم أحمد أمين سلسلة الأنيس . بتقديم مختار نويوات- موفم للنشر- الجزائر 1989. ج2. ص154.

(24) – نفسه. ج2. ص 155.

(25) – نفسه. ج1.ص 154.

(26) – نفسه. ج1 ص 164.

(27) – نفسه. ج2. ص 162.

(28) – نفسه. ج2 ص 162- 163.

(29) – نفسه. ج2 ص 163.

(30) – نفسه، ج2 ص 163.

(31) – نفسه. ج2 ص 163.

(32) – نفسه. ج2 ص 163- 164.

(33) – نفسه، ج2 ص 157.

(34) – عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في معاني النحو. تصحيح و مراجعة محمد عبده. تعليق محمد رشيد رضا. دار المعرفة . بيروت. الطبعة الأولى 1994. ص 54.

(35) – نفسه.ص 264.

(36) – نفسه.ص 78.

(37) – نفسه. ص 275..

(38) – نفسه. ص 70.

(39) – نفسه. ص 264.

(40) – نفسه. ص 269.

(41) – نفسه. ص 289.